دولة سياسية يهودية

فى فلسطين

بقلم بيار كر ابيش القاضى بمحكمة مصر المختلطة

حينما دخلت قوات اللنبى القدس فى التاسع من دسمبر سنة ١٩١٧ كان عدد سكان فلسطين على وجه التقريب ٧٠٠ الفا من العرب وستين الفا من اليهود . ومن هؤلاء العرب ستمائة خمسة وعشرون الفاً من المسلمين أى الاغلبية الساحقة . أى أن علم الاسلام نشر فوق الاراضى المقدسة منذ القرن السابع خلا الفترة القصيرة التى ساد فيها الصليبيون . ولم يضطهد اتباع محمد اليهود أو يسموهم باذى أو يلحقوا بهم سوءا فى وقت لم يعرف العالم الاسلامى شيئاً من مبادىء التسامح الدينى . أى أن اليهود عاشوا فى سلام ووئام قرنا تلو قرن حينما كانت كلمة الاسلام هى القانون السائد وذلك راجع الى حكمة عمر الخليفة الثانى (قد يس بولس العالم الاسلامى)

إذ ابتكر عمر حلا شريفا انسانيا لمعضلات زمنه و بدأت تلك السياسة الرشيدة فى القرن السابع المسيحى . بيدأن واضعى سياسة الانتداب البريطانى لفلسطين كانوا على جانب عظيم من جهل الاسلام جهلا يقرب من سذاجة الطفولة بقدر حسن نياتهم و بهـــذا قضوا على هذا البناء البديع بين يوم وليلة فضحوا بالدم اليهودى على مذبح مؤسس على حسن النية بنته أيدى غشيمة . وقد تلقى عمر الهامه من رسالة القرآن . إذ يقسم كتاب المسلمين المقدس « الكفار » الى قسمين أولها « غير المؤمنين » أو « الوثنيين » ومصيرهم القضاء عليهم وقد حث النص المقدس الرسول على قتالهم إذ مصيرهم جهنم وبئس المصير .

الكتابيون أوأهل الكتاب من المسيحيين واليهود فنص القرآن فيهم ليس بمثل سوء المصـــير .

ولكى لايحنق انسان على الاسلام لمثل هذه اللغة المهاجمة نقتبس من انجيل متى (٢٨ — ٤٢) قول المسيح : « لاتنكروا أنى جئت لابعث السلام على الارض . لم أجىء لارسل السلام بل السيف ، وفى الحروب التى أشهرها محمد وأبا بكر وفى أوائل حروب عمر كان يعادى الكفار والمنافقون والاسلام

وقد سنحت الفرصة لهؤلاء الاعداء أن يملؤا قبور الشهداء بيد أنه بسقوط القدس تغير الموقف اذ أن العدو المهزوم كان أمة متحضرة كبيرة العدد ورائدهم الكتاب المقدس والتنكيل بهم ليس من حسن السياسة فى شىء فاستحالت الضرورة عند القاهر فضيلة . وارسل فى طلب البطرك المسيحى فخاطبه القائد السياسى قائلا : « لتعش أنت ورعيتك على شريطة أن تظلوا بمعزل عن المؤمنين الحقيقيين وتدفعوا الجزية » وهذا الاقتراح عاد بخير النتائج . فاصبح البطرك ليس بالراعى الروحى فحسب بل الراعى السياسى فوق ذلك . وكان محور السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . وفرض الضرائب على بنى ملته وحدد جزية المسلمين وانقطعت الاتاوات التى كانت تجبى للخليفة من رعاياه المسيحيين الذين أعفوا من الخدمة العسكرية

فصاروا فى زمن الحرب أولى ثروة ثم أعطيت مثل هذه الامتيازات لليهود وصاروا شبه مستقلين وكان ثمن تفوق المسلمين عبوديتهم المالية اذ احتقروا التجارة واهملوا الزراعة وفضلوا السيف على القلم . أى أن المسيحيين ويهود فلسطين (ماعـــدا الصهيونيين) أثروا فى ضعتهم فلم يكونوا بالاغنياء اذ كيف تستخرج الذهب من صخور يهوديا ! بيد أنهم كانوا أحسن حالا من المسلمين الحاكمين الغالبين فصارت سفينة الدولة كسفينة ملأت المياه قاعها يقودها ربان مسلم ولكن اليهود والمسيحيين هم أولو الامر فى مكتب الصراف والتموين !

ومما يؤسف له أن جهل ساسة الحلفاء الذى ينطوى عليه الانتداب البريطانى لفلسطين يحوى فى ميناه جرثومة أراقة الدماء أو جيش بريطانى هائل العدد والعـدد أن خطأ مجلس العصبة يظهر أكثر شذوذاً مما نعرف. فما كان على السادة الذين لعبوا بالنار فى سان ريمو إلا أن يدرسوا التاريخ ليعرفوا أن المسلمين أكثر شعوب الارض سماحة على شريطة أن تضعهم عند مركز القيادة حتى ولو كان الشخص الآخر هو الذى يتولى القيادة . وكان الواجب أن يكون التطور لا الانقلاب هو النغمة السائدة فى السياسة الغربية فى البلاد المقدسة .

وهناك عامل آخر يدعو لندن الى الحيطة والحذر أزاء هذه الاغلبية العربية الساحقة وقد يجدر بنا أن نذكر أنه سرعان ما انضمت تركيا الى دول الوسط حتى اتجهت سياسة الحلفاء الحربية الى اغراء العرب .

على أن يهوا لقتال تركيا وقد فعلوا ذلك بعد الاتفاق مع بريطانيا وكان شريف مكة هو حامل كلمتهم كما كان السر هنرى مكماهون لسان حال بريطانيا وقد جاء فى

إحدى هذه الخطابات بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ « بمقتضى السلطة المخولة لى من حكومة بريطانيا صرح لى بأن أفضى بما يأتى وأقدم التأكيدات الآتية : أن بريطانيا مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتعضيدهم فى ذلك داخل المناطق المحددة بالحدود التى يقترحها شريف مكة »

وقد يجدر بنا أن نذكر أن بريطانيا لم ترض بالسياسة التى رسمها الزعيم العربى ثم ما كان من عدم رضوخ الاخير . ولما كان الطرفان متفقين على هزيمة الاتراك ثم الاتفاق الذى أكدت به حكومة لندرا « أن بريطانيا لاتنوى أن تعقد صلحا بشروط لايكون من بينها استقلال العرب من السيطرة الالمانية أو التركية شرطا أساسياً »

بيد أنه اذا احتاج الامر الى مساعدة العرب لهزيمة الاتراك إلا أنه من ناحية أخرى رأت حكومة دوننج ستريث أن مؤازرة اليهود الصهيونيين شرطا أساسياً لمرونة مقابض الكيس فى السيتى ولذا حرر بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ خطابه التاريخى (تصريحه المشهور) .

والذى يظهر أن نصوصه المحددة فى هذا التصريح لم تؤلم عواطف الزعماء العرب لما طبع عليه الاسلام من السماحة ولعلمهم أن أجدادهم أمنوا اليهود على حياتهم وأموالهم ومنحوهم موطنا . بينما كانت المسيحيه ممعنة فى اضطهاد اليهود . ولعلمهم فوق ذلك أن لليهود — اليهود الصهيونيين — موطناً فى فلسطين . وبذا أولوا هذه اللغة أنها لاضطهاد اليهود قرونا فماهذا التصريح الا وعد من جورج الخامس أنه لن ينسج على منوال أدوارد الاول . وقصارى القول أن العرب أولوا هذا التصريح بأنه دليل على عدم ثقة اليهود بالمسيحيين فحسب . وأن زوال العلم الترى لن يرجع الساعة الى الوراء أى أنه لم يخطر ببالهم خطر . أن هذا التصريح مضاد للاستقلال الذى أوكد لهم

ولما سلمت القوات التركية بمساعدة العرب أصدرت رياسة القوات الانجليزية الفرنسية تصريحا فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ مؤداه : « أن الغرض الذى وضعته فرنسا وانجلترا نصب أعينها فى مواصلة الحرب فى الشرق (تلك الحرب التى أشهرتها المانيا) هو تحرير الشعوب التى طالما ظلمها الاتراك وتأسيس الحكم القومى والادارة القومية المستمدة سلطانها من اختيار هذه الشعوب اختياراً حراً بكامل حريتها » فكما أن المسلمين هيأوا ملجأ حصيناً مأمونا لليهود المضطهدين من المسيحية فى الماضى كذلك وجود ستمائة وخمس وعشرين الفا من المسلمين من ٧٦٠ الفا من السكان معناه أن الوطن القومى اليهودى الذى نص عليه تصريح بالفور اصبح مكفولا

ان عهد عصبة الامم ناصر مبدأ استقلال عرب فلسطين . وقد نص على ذلك فى الفقرة الثانية والعشرين من معاهدة فرساى اذ صرح ، أن أمما وجماعات كانت خاضعة لتركيا وصلت الى مستوى من التقدم والرقى بحيث يمكن أن يعترف مبدئيا بوجودها كأمم مستقلة خاضعة للتضحية الادارية ومساعدة الدولة المنتدبة الى أن تصبح قادرة على النهوض وحدها ،

ثم ما كان من أن فلسطين صارت واقعة تحت الانتداب البريطانى . وقد يدهش الانسان عند مراجعة هذا الصك كيف انه لا يتجه نحو تمكين فلسطين من النهوض وحدها أو انشاء وطن قومى لليهود بل يتجه الى تحويل فلسطين الى موطن للشعب اليهودى . ويظهر أول الامر ان ذلك لم يحرك شواجن الاغلبية العربية التى ما فتىء المسلمون والمسيحيون أن يذكروا :

(١) اتفاقية ١٩١٥ مع انجلترا

(٢) اشتراكهم الفعلى مع جيوش اللنبى

(٣) التصريح الفرنسى الانجليزى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨

(٤) نصوص عهد العصبة .

فظلوا متواصين بالصبر واثقين بعدالة قضيتهم .

وعند ما رأوا أنهم أدمجوا مع اليهود فى وحدة سياسة واحدة ، وان مندوبا ساميا يهوديا ومدعيا عموميا يهوديا نصبا عليهم بدأت ثقتهم فى روح الانصاف الغربى تتزعزع . وسواء أكانوا محقين أو غير محقين فالواقع انهم شعروا بالخيانة . فلما بدأت الادارة الفلسطينية فى سن القوانين لتشجيع مهاجرة اليهود واستيراد عناصر اعتقد الزعماء العرب عن صدق حسن واخلاص انها ملوثة بالبلشفية انقلب الموقف مهددا بأسوأ العواقب وزاد ذلك الغيرة الدينية . ولما انقلب الانتداب على فلسطين الى إذلال المسلمين أمام اليهود والقضاء على البناء الاجتماعى الذى شاده عمر صار واجبا على «المؤمنين» أن يشهروا الحرب على اليهود

ثم تذكر عرب فلسطين المسيحيين انجيل متى فآزروا المسلمين العرب وتساندوا وضموا صفوفهم وسلاحهم والنتيجة انه لولا الحراب البريطانية تهزم مبدأ تقرير المصير لما سلمت رقبة يهودى فى فلسطين . وهذه العواطف يمتزج بها العطف على مجهودات يهود فلسطين الطائشة واحترام العناصر اليهودية غير الصهيونية فى أمريكا فصير سكان فلسطين اليهود فى أيدى اليهود الامريكيين غير الصهيونيين .

ان الصهيونية لفشل رائع وان ما يقال عن تحويل فلسطين الى وطن قومي للشعب اليهودى صار ممكنا بفضل ما يقال عليه .

الاتحاد غير المقدس بين الذهب اليهودى الامريكى غير الصهيونى والبارود والرصاص البريطانى . فلو توقف تيار الذهب من أمريكا لرأى يهود فلسطين ضرورة سحب انجلترا لهذا التصريح ولو نقلت الجنود البريطانية أو قلل عددها تقليلا عظيما لصار عدد ضحايا اليهود رائعا . ولو تردد يهود أمريكا غير الصهيونيين فكان عليهم أن يسألوا أنفسهم ما كان مصير العبيد السابقين فى الولايات الجنوبية بين أمريكا ما دام الشمال على جهله واصراره على هزيمة تصميم الجنوب . فنشأ من ذلك زيادة الاقليات بين السود ولم يكن لأحدمنهم صوت سياسى فى احدى عشرة ولاية . وانى أصارح ان حسن النية اذا اقترن بالجهل صار مجلبة للشقاء فى العالم .

وما مصير الادارة فى فلسطين الا الخيبة انهى آزرت تصريح بلفور . فالواجب على يهود أمريكا غير الصهيونيين :

(١) تذكر ان الاسلام عامل اليهود خيراً من المسيحية

(٢) التفكير فيما هو أجدى وأنفع نحو المهضومين من أبناء جنسهم . ان تأسيس وطن قومى لليهود عمل ينطوى على الهدم والتخريب .

والآن وقد التوى تصريح بالفور وشوه حتى ذهبت صيغته الاصلية وصار مرادفا لحكم دينى خاص يجب أن لا يبشر بأية رسالة لدى يهود أمريكا غير الصهيونيين ويجب عليهم العمل على سحب هـــذا التصريح فلو نجحوا فى ذلك لصار العرب واليهود قادرين تحت الاشراف الانجليزى على رسم تحديد سياسى لفلسطين يتفق مع تأكيدات مكماهون والقيادة الفرنسية الانجليزية ويضمن تأسيس واستدامة وطن قومى لليهود . بيد ان فكرة تحويل فلسطين الى وطن قومى ليست بالفكرة الامريكية وتعارض معارضة عدائية لمبادىء يهود أمريكا غير الصهيونيين .